كلمة صاحب الغبطة البطريرك اغناطيوس الرابع

في الكاتدرائية المريمية بمناسبة زيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني لدمشق

٦ أيار ٢٠٠١

صاحب القداسة،

بطرسُ الذي أقام في انطاكية أولاً يستقبلكم الآن على هذه الأرض السورية. من هذه الأرض تحققت عالمية الرسالة الإنجيلية بالأفعال. على الطريق المُسمى "المستقيم" الذي مشيتم فيه قبل قليل نفخ الروح في بولس، الذي صعقه الرب، وصار هو صوته في العالم. في هذه الأرض الأنطاكية، اغناطيوسُ المتوشح بالله خليفة زعيمي الكرسي الانطاكي والممتلىءُ من إنجيل يوحنا تكلم عن أهمية الكنيسة المحلية المجتمعة حول الافخارستيا التي هي تؤسس هذه الكنيسة في التقليد والتي تصير هي فيها منبعاً للشهادة. من بعد هؤلاء، يوحنا الذهبي الفم، وهو ابن لهذه الأرض أيضاً، وآباء أُخر عديدون يجمعهم الإيمان، فتحوا دروب الزهد والتفسير الكتابي والليتورجيا عندما حملوا في أجسادهم آلام الصليب. قد رأينا نورَ الثالوث القدوس المؤلِّه على وجوههم. صارت الأرض الأنطاكية بفضل حياتهم وشهادتهم محلاً مفضلاً لحب الرب.

وهذا الحب أتاح لنا أن نَجبَه تجارب التاريخ. وما كان أكثرها. وعلى غرار مكسيموس المعترف، الذي ولد على وجه الاحتمال في ضواحي هذه المدينة، علّمتنا التجارب أن من يجاهر بالإيمان الحقيقي يحمل الكنيسة في داخله، ويصير هو نفسه الكنيسة. بالتالي ليس الدفاع عن استقامة الرأي حكراً على كرسي رسولي معين. الكنيسة وحدها هي القادرة على أن تكون ضمانة لصحة الكلمة وتأصّلها في الروح. هكذا نفهم إيمان الشهود الأوائل وإيمان كنيسة الألفية الأولى الواحدة. هذا الإيمان بالنسبة لنا هو المكيال الذي به نكيل كل تطور لاحق. رغم كون الأرثوذكسيين غيرَ مستحقين فإن الكنائس الأرثوذكسية تعي أن تعليمها مطابق لتراث الآباء ولإيمان المجامع المسكونية. إننا نعتقد إذاً وبكل تواضع أن الكنيسة التي أسسها المسيح ما تزال باقية بكل ملئها في الكنيسة الأرثوذكسية.

لهذا السبب، لا يجوز التغاضي عن الانشقاقات التي مزقت الرداء الانطاكي. إن ممثلي كنيستكم قد قالوا هذا معنا في بيان البلمند العام ١٩٩٣. ففي البلمند أكدنا معاً أنه لا يمكن للكنائس التي اتحدت بكنيسة روما أن تكون "نموذجاً للوحدة". منذ ذلك الحين، يبدون أن اتفاقنا بدأ يتفكك وأن المواقف تتصلب أكثر فأكثر. وكم علينا جميعاً أن نحترس لئلا نفتح جروحاً لّما تندمل. العديد من الكنائس الأرثوذكسية تتأفف من العودة إلى ممارسة الاقتناص وتصفه بأنه عدائي. نحن أنفسنا متزعجون هنا من ممارسة وحشية للضيافة الافخارستية التي نشعر انها ليست أكثر من تبشير مقنّع. ينبغي أن تبرز مبادرات شجاعة ونبوية من أجل تطويق وضع يهدّد بالتفاقم، إننا مقتنعون أنه لا يمكننا

ترك استراتيجية الاقتناص إلا إذا تبنينا لاهوتاً حقيقياً في المصالحة يُعتبر الأخ فيه ساكناً قلب المسيح نفسه. إننا نتمنى ألا يُعيقَ حجر العثرة هذا مواصلة الحوار بين كنائسنا.

يجب أن يتناول هذا الحوار، بعد أن نستعيده، مسألة تبدو لنا أساسية ألا وهي مسألة الحرمات التي أعلنها مجمع الفاتيكان الثاني ضد كل من لا يعترف بالعصمة البابوية. هل تصيبنا هذه الحرمات التي تبطّن في داخلها رؤية كنسية مختلفة عن رؤيتنا؟ إنه لمن المهم جداً توضيح مدلولها الحقيقي في الفكر اللاهوتي المعاصر للكنيسة الكاثوليكية.

سأتوقّف عن الاسهاب في ذكر هذه الانسلاخات. إن قداستكم يعلم علم اليقين ثقل التاريخ الذي رسا على كاهل الكنائس الأرثوذكسية في شرق أوروبا. إن آلامهم أعطتهم يقيناً أكبر أنهم مسؤولون عن الرجال والنساء والأراضي التي استأمنهم عليها الرب. لقد أنعم الله على هذه الكنائس بنعمة الدموع. ودموعهم هي دموعنا. إنهم أعطوا أيضاً نعمة الفرح الفصحي الذي لا أحد يعيشه بالقوة التي هم يعيشونه بها. إننا نصلي من أجل أن نتمكن من أن نبدأ من جديد، كلنا معاً، كنائس الشرق القديم وكنيسة الغرب، حواراً صادقاً وعميقاً ومحباً.

صاحب القداسة،

في هذه البلاد وفي لبنان، أقام المسيحيون أنفسهم على حوار تآخ يومي يعينهم على تخطي العقبات الماضية. وقد وضعنا منذ بضع سنوات أساساتٍ لتفاهم أكبر ولتعاون حقيقي في مجالات التعليم والرعاية. إن الحب الأخوي يحركنا اليوم أكثر مما مضى. رغم التباعدات المشروعة المرتبطة بثقافاتنا المختلفة فإننا نعتقد أن قراءةً واحدةً للتقليد لا تزال ممكنة. إننا لهذا السبب نشعر أننا نشكل حضوراً مسيحياً واحداً في استقبال قداستكم هنا فيما بيننا. هذا الحضور المرتبط بحضور بطرس وبولس وربوات القديسين الانطاكيين يجعل منكم اليوم حاجّاً أمام الله وحاجّاً لأنكم تحملون في شخصكم كل كاثوليك العالم إلى ينابيع إيمانهم إلى أنطاكيا هذه التي دُعي فيها التلاميذ مسيحيين أولاً (أع ١١: ٢٦).

إن الإسلام يواكبكم أيضاً في هذا الحج أمام الله. إن الإسلام في جوهره وُلد ويريد أن يبقى حتى نهاية الأزمنة غريباً عن كل ما لا يرتبط بالله. إننا نريد أن نعيش مع المسلمين في هذه الطاعة للإله الواحد ذاته. هل ينبغي أن نذكر أن السلام هو واحد من أسماء الله الحسنى في كلا التقليدين؟ إننا نريد أن نشهد أيضاً أمامكم للتقوى الحقيقية وللرحمة التي نشعر بها عندما نحتك بالعديد من المسلمين الذين نعيش وإياهم. إننا معهم نستقبل قداستكم ومعاً نستضيفكم راجين اللقاء في المجد يوم يعود المسيح ثانية ليدين الأحياء والأموات.

إننا معهم نصلي دون انقطاع كي يعم السلام في أورشليم وفي فلسطين وكي ينال الحقوق المشروعة ذلك الشعب الذي يعيش حالياً في القمع والإذلال. لا تملك كنائسنا أي مصداقية إذا لم تدافع عن وحدة الشعب الفلسطيني وحريته وعن حقه في العيش الكريم وفي الأمان. وهذا نفسه ينطبق على الشعب العراقي. فهناك في العراق كما في فلسطين الكثير من الأطفال الأبرياء الذين يعانون الحرمان ويموتون موتاً. إن مسؤوليتنا المشتركة هي في تنبيه العالم إلى صراخهم واستغاثاتهم.

في كل الأحوال، سلام الإنسان الداخلي لا يرى إلا من خلال اللطافة الإنجيلية. إن اللطفاء لن يكتفوا بأن يرثوا فقط ملكوت السماوات. بل عليهم أن يكشفوا الملكوت للعالم. بعد قرون عديدة من المجازر والتكفير من كافة الأشكال ورفض للآخر فإن الجماعة المسيحية مدعوة لأن تجسد رسالة يسوع أكثر فأكثر من أجل الفقراء: لا الأفراد فقط بل وكل الشعوب الفقيرة. يجب علينا أن نجد الكلمات والوسائل الملائمة من أجل أن نذكّر الأمم الغنية بضرورة توزيع الممتلكات الأرضية لنيل ملكوت السماوات. بهذا سيكتشف المحرومون أن وجه الله انكشف قبل اكتمال الملكوت. الكل لله. ليس العالم إلا الوليمة التي يدعو إليها كل أبنائه دون أي إقصاء لأحد. يجب على المسيحيين على غرار معلمهم أن يغسلوا أرجل كل الناس دون النظر إلى دينهم أو إلى عرقهم. إننا مدعوون إلى أن نمسح دموع كل الذين يبكون.

علينا أن نقوم بهذه المهمة معاً. إنها تشكل شهادة قوية إلى جانب الشهادة التي تحاول كل كنيسة من كنائسنا أن تحملها في حضارة البلاد حيث تعيش. إن حقوق الله على فكر الناس وعلى قلبهم تشكل تمهيداً لحقهم في الحياة والكرامة. من دون أن نهمل الحسنات التي تقدمها العولمة فإن واجبنا يقتضي أن نشير إلى مخاطرها وأن نعلن سيادة الله وحق كل الناس في اقتسام الطعام الأرضي والخبز النازل من السماء.

جعل الله مروركم بهذه الأرض توجيهاً لفكرنا ووعينا نحو أخوّة أعمق وأصدق. نحن نعرف أنكم شخصياً تريدون أن تفهموا كنائسنا فهما أفضل. إنكم تعرفون العقبات أمام الوحدة. على كل كنيسة من كنائسنا أن تساهم في تجاوزها كل واحدة بحسب المسؤولية التاريخية المتوجبة عليها. المهم هو أن لا نوصد أبوابَنا في وجه نسائم الروح. إنه يسرنا أن تسهر كنيسة روما على المحبة في الوحدة المستعادة، المحبة بالطبع بين الإخوة الذين خطايانا فرقتهم بل وأيضاً المحبة لكل إنسان في هذا الشرق العزيز على الله وفي كل العالم وذلك "حتى يؤمن العالم".

صاحب القداسة،

في هذا الرجاء الذي لا حدود له، مع المجمع الذي يحيط بنا والكهنة والرهبان والمؤمنين، في محبة الرب يسوع المسيح، نقبلكم.

صاحب القداسة، أهلا وسهلا بكم.